فيصل حوراني*

ردة الفعل الفلسطينية تجاه الحرب على لبنان: اغتباط وهواجس

إذا قال السيد حسن نصر الله ذات يوم أنه يتحدث من القدس فصدقه! يتداول الإسرائيليون هذه العبارة لا في معرض التعبير عن الإعجاب وإنما عن الخشية، فيظهرون ما استخلصوه من التجربة المديدة: حزب الله لا يكذب حين يتوعدهم. وإذا كان هذا هو ما يَرُوج بين الإسرائيليين فيظهر كم أرهق حزب الله جيشهم وأذله وزعزع ارتكانهم إلى قدرته على الردع، فإن جمهرة الفلسطينيين توصلت بمضي السنين إلى الاستنتاج ذاته من موقع الإعجاب: حزب الله لا يكذب حين يَعِدُ. وبهذه الثقة بصدقية الحزب، تلقى الفلسطينيون نبأ عملية "الوعد الصادق" بالابتهاج. فَظَفَرُ حزب الله بأسيرين إسرائيليين انضافا إلى الأسير الآخر الذي ظفر به مقاتلون فلسطينيون من قطاع غزة عزز الأمل بأن تُرغَم إسرائيل على إتمام عملية تبادل للأسرى. وقد توقع الفلسطينيون أن يظفر بالحرية عدد كبير من أسراهم المسجونين في إسرائيل، والأسرى اللبنانيون جميعهم، وراحوا يترقبون ورود الأنباء الطيبة. ولمّا اتخذت إسرائيل من أسر جنديها ذريعة لشن حرب طاحنة على لبنان، انشد الاهتمام الفلسطيني بكليته إلى وقائع هذه الحرب.

هذا المقال سيتناول مظاهر اهتمام فلسطينيي الأرض المحتلة منذ سنة ١٩٦٧، سلطتهم، رئاستها وحكومتها، وفصائلهم، وجمهورهم، بالحرب التي استغرقت ثلاثة وثلاثين يوماً متصلة خلال تموز/يوليو وآب/أغسطس ٢٠٠٦، وردات فعلهم تجاهها، وما تعزز أو بطل من قناعاتهم بسببها. وفي المدخل إلى هذا التناول، من المفيد أن نتذكر أن تشابك العوامل التي أنشأت الوضع الراهن في الأرض المحتلة جعل هذا الوضع معقداً أشد تعقيد. ومِثْل هذا التعقيد لا يبيح تناول أي عامل بمعزل عن تأثير غيره أو تأثير مجمل الوضع الذي يثقل على الجميع. وهذا ينطبق أيضاً على تناول ظواهر السلوك التي أنتجها الوضع المعقد. لقد طال أمد الوضع غير العادي، وأزمنت أهواله، فصار من المتعذر توصيف ما يتفاعل داخله بالاعتماد على المعايير التي تُستخدم لتوصيف وضع عادي. ومن العسير، إذاً، تناول ما نحن بصدد تناوله من دون المجازفة بالوقوع في التبسيط وتجزئة صورة لا تتجزأ إلاّ قسراً.

بكلمات أُخرى: نحن إزاء وضع ترتسم فيه

(*) كاتب من فلسطين.

مواقف متشابكة وغير مستقرة. وقد تتبدل مواقف الجماعة الواحدة، أو الفصيل الواحد، أو الشخص الواحد، بين عشية وضحاها. كما قد تُراوح هذه المواقف وهي تتبدل بين الشيء ونقيضه، وتتدرّج على ما بين الحدين من مسافة. وقد يرفع نبأ ما المعنويات فيبلغ بها الذروة وينشئ آمالاً باهرة، ثم يهبط نبأ تالٍ بها إلى القاع. وفي التبدل والمراوحة كليهما، يتمايل في عدم الاستقرار ناس المستويات كلها، ناس النخبة والجمهور، القادة والتابعون، الموالون والمعارضون، والذين بين بين.

المقارنة بين وضعين

على الرغم من هذا فإنه لا بد مما ليس منه بد، حتى مع المجازفة بالتبسيط والتقسيم الميكانيكي لظواهر لا تنقسم. وكي تقلّ الأخطاء يجب أن نستحضر المقارنات التي يجريها الفلسطينيون بين مقاومتهم هم الاحتلال الإسرائيلي وبين المقاومة التي يمارسها حزب الله. فلفترة امتدت بين أواخر ستينيات القرن المنصرم وأوائل ثمانينياته، في مدى خمسة عشر عاماً متصلة، كانت المقاومة المتمركزة في لبنان فلسطينيةً ولبنانيةً. وقد تشارك الطرفان في الغرم والغنم معاً، حتى حين تولى الفلسطينيون العبء الأكبر وغلّبوا النهج الذي اختاروه هم. أمّا بعد إخراج جمهرة المقاتلين الفلسطينيين من الجنوب اللبناني وبيروت في سنة ١٩٨٢، فقد نشأ الوضع الذي وقع فيه معظم العبء على المقاومين اللبنانيين. وهذا هو الوضع الذي نبت فيه حزب الله ونما. ثم لم يلبث أن شكل الحزب العمود الفقري لمقاومي الاحتلال الإسرائيلي اللبنانيين جميعهم. ومنذ نشأته، كان حزب الله أكثر فصائل المقاومين اللبنانيين تعاطفاً مع المقاومين الفلسطينيين. وقد احتفظ الحزب بموقفه هذا حتى حين انضم معظم الفصائل اللبنانية إلى مناوئي القيادة الشرعية لمنظمة التحرير الفلسطينية واستخدم السلاح ضد الوجود المسلح لمن يوالون هذه القيادة في المخيمات. وبهذا، كما بغيره، استمر الاهتمام الفلسطيني بالمقاومة اللبنانية التي ثابر الحزب على تطويرها فبلغ فيها مستويات غير مسبوقة.

ومما لا شك فيه أن بعض المقارنات انطوى على شيء من الحسد لأن الحزب بذّ الفلسطينيين في مجالات الإعداد والتنظيم والتعبئة والتدريب والقتال. إلا إن معظم المقارنات انطوى، كما يجب أن يقال، على الاغتباط. ومما لا شك فيه، أيضاً، أن بعض المقارنات حمل رغبة سافرة في تبرير القصور الفلسطيني قياساً بما بلغه حزب الله، واجتهد في تبرير الفارق بنسبته إلى اختلاف الظروف الخارجة عن الإرادة. إلاّ إن مقارنات كثيرة وضعت اليد على الأسباب الذاتية أيضاً. ومع اختلاف الزوايا التي انطلقت المقارنات العديدة منها، اختلفت، طبعاً، الاستخلاصات، واختلفت معها الأحكام. وبعد اتفاق أوسلو في سنة ١٩٩٣، انضاف إلى ما تقدم معارضة حزب الله لهذا الاتفاق. فنشأت في صفوف الفصائل الفلسطينية المؤيدة لأوسلو، "فتح" ولفيفها، حاجة كادت تفصح عن ذاتها علناً إلى الانتقاص من مكانة حزب الله والتقليل من أهمية منجزاته في مجال المقاومة. وهناك بين الذين ضاقوا بوقوف حزب الله إلى جانب الفصائل الفلسطينية الرافضة مَنْ بلغوا حد التشكيك في دوافع الحزب ونواياه وروّجوا في شأنها شتى التهم.

يمكن أن يشار أيضاً إلى وجود فلسطينيين تخوفوا من مغبة ارتفاع مكانة حزب الله في سياق تخوفهم الأعم من مغبة البروز المطرد لقوة المنظمات الأصولية كلها. وهؤلاء هم الذين خشوا أن يؤدي صعود الأصولية الدينية إلى ما لا تحمد عقباه. وهؤلاء هم النفر من العلمانيين، النفر القليل منهم في واقع الأمر، الذين لم ينتبهوا إلى التمييز الضروري بين قوة إسلامية تقاوم الاحتلال وتتبع أكثر الأساليب عصريةً في المقاومة وتسند الأنظمة المناوئة للعدوانية الأميركية، وبين قوة أُخرى رجعية تسند الأنظمة المستخذية أمام المعتدين أو المتواطئة معهم، أو تستخدم وسائل وأساليب

منحطة تساعد المعتدين بينما هي تدعي أنها تقاومهم.

والواقع أن أغلبية الفلسطينيين، أغلبيتهم الكبيرة، رأت في حزب الله والملتفين حوله في لبنان قوةً ذات فعالية متميزة في مقاومة الاحتلال الإسرائيلي والتصدي، استطراداً، للعدوانية الأميركية. وما دامت الحاجة إلى دحر الاحتلال وتخفيف اندفاعة العدوانية الأميركية أهم الحاجات، فقد قوّمت الأغلبية الفلسطينية دور حزب الله في المقاومة تقويماً شديد الإيجابية. والذين يهتمون بقياس الحجوم يمكنهم الاستدلال على حجم هذه الأغلبية من الظاهرة الماثلة بدلالتها الساطعة: الفلسطينيون الذين يضيقون بمقاومة حزب الله لإسرائيل لا يجرؤون على التعبير عن ضيقهم هذا بتعابير مباشرة، بل يتسترون وراء التحذير من مخاطر المغامرة وما إلى ذلك، في حين يعبق الجو الفلسطيني بشتى مظاهر التعبير عن الإعجاب بمنجزات الحزب في مجال المقاومة.

المختلف والمتماثل

بأخذ ما ذكرناه بوجوهه كلها في الاعتبار، يمكن أن نوجز أهم البنود التي تتناولها المقارنات، لتتضح الخلفية التي تنطلق منها المواقف المتصلة بحرب الأيام الثلاثة والثلاثين، حرب "أمطار الصيف" كما سماها الذين مرّغت وُحولها أنوفَهم.

وأول البنود هو هذا الذي يشير إلى الفارق الجوهري بين الوضعين اللبناني والفلسطيني، حين تجرى المقارنة بين أهداف إسرائيل في لبنان وإزاء اللبنانيين وبين أهدافها في فلسطين وإزاء الفلسطينيين. إن ما هو متماثل في الحالتين لا يحتاج إلى عناء كثير لوضع اليد عليه. أمّا المختلف فهو الذي يحتاج إلى الغوص في عمق المسائل. فأرض لبنان لم تُدرج في مطامع إسرائيل باعتبارها أرضاً يجب ضمها إلى الدولة الصهيونية. وقد احتلت إسرائيل ما يليها من أرض لبنان مدة ثمانية عشر عاماً من دون أن تضمها إليها أو أن تنشئ فيها مستعمرة أو مستثمَرة، ومن دون أن تدعي أن لها حقاً فيها. ولأن أرض لبنان ليست هدفاً لتوسيع رقعة دولة إسرائيل، فإن دولة العدوان هذه لم تستهدف إخلاء لبنان من سكانه أو إلغاء كيانه. وغني عن البيان أن هدف إسرائيل في أرض فلسطين ظل على الدوام التوسع والاستيطان وإبعاد سكان هذه الأرض عنها، جسدياً بالقتل أو التهجير الدائم، أو سياسياً بحرمانهم من حقوقهم الوطنية فيها وتدمير كيانهم. أمّا اللبنانيون، فإسرائيل تستهدف التأثير فيهم حتى ينشأ في بلدهم وضع يكفّ فيه هذا البلد عن أن يكون مزعجاً لها أو مَعْبَراً للمزعجات العربية والإقليمية أو الدولية التي تستهدفها. وبوجود هذا الفارق، صارت حساسية الرأي العام الإسرائيلي تجاه خسائر إسرائيل في الأرواح في لبنان أشد من حساسيته إزاء الخسائر المماثلة في المواجهات مع الفلسطينيين. وصار هذا الرأي العام عَجولاً في الضغط على حكوماته كي تسحب قواتها من لبنان كلما زاد عدد القتلى الإسرائيليين، من دون أن يفعل الشيء ذاته على الجانب الفلسطيني مهما بلغ عدد القتلى.

ثاني البنود يتناول المختلف والمتماثل بين وضع المقاومين الفلسطينيين في لبنان ووضع حزب الله الذي نشأ ونما بعد إخراج جمهرتهم منه. فالمقاومون الفلسطينيون كانوا غرباء عن البلد حلّوا فيه لأسباب لم يكن هذا البلد هو المسؤول عنها. وهكذا، بقيت مسألة إخراج المقاومين الفلسطينيين من لبنان في ظرف أو غيره مدرجة في جدول أعمال أطراف عديدة، بينها أطراف لبنانية، وليس في جدول أعمال إسرائيل وحدها. وقد استدرج هذا الوضع المقاومة الفلسطينية إلى الانشغال بأعباء الدفاع عن وجودها في لبنان بمقدار انشغالها بأعباء المواجهة مع إسرائيل، وربما أكثر. ووجد المقاومون الفلسطينيون أنفسهم منهمكين حتى في الحرب الأهلية التي اشتعلت في البلد لأسباب كثيرة، كان الاختلاف بشأن وجودهم هم فيه واحداً منها. وهكذا، استُدرج الفلسطينيون

إلى أن يواجهوا لبنانيين بالسلاح بينما هم مصطفّون بسلاحهم مع لبنانيين آخرين. أمّا حزب الله فقوةٌ لبنانية متجذرة في بلدها ولا يملك أحد أن يخرجها منه تحت أي ظرف مهما بلغت درجة ضيقه بوجودها. والحزب لا يوجه سلاحه ضد أي لبنانيين. وقد قدم حزب الله البرهان بالملموس على أن أي قوة قتالية يحتازها لن تُوجَّه إلاّ ضد المحتلين الإسرائيليين. وليس بين الفلسطينيين من يشك في التزام الحزب الصارم في هذا المجال. من هنا، ارتسمت المواقف ضد المقاومة الفلسطينية وهي متمركزة في لبنان بهدي دوافع كثيرة لم يكن نشاطها الموجه ضد إسرائيل سوى واحد منها، فتساوت المواقف حين تعلق الأمر بنشاطها السياسي وحين تعلق بالنشاط المقاوم، وكثر المعترضون على وجود فصائلها في البلد. أمّا المواقف من سلاح حزب الله فارتسمت على هدي الموقف من الاحتلال الإسرائيلي وحده، فكان الفارق في حجمي المعارضين في الحالتين كبيراً.

ثالث البنود، وهو ما سبقت الإشارة إليه، يلحظ الفارق بين مستويي الإعداد والتعبئة والتنظيم والأداء. والفلسطينيون مجمعون على أن المستوى الذي بلغه حزب الله فاق المستوى الذي بلغوه هم. وينسب بعضهم هذا الفارق إلى خلل في صفوف المقاومة الفلسطينية وأضرار تَعَدُّد فصائلها وتنابذها، بينما ينسبه آخرون إلى الفوارق بين الوضعين، أي الفوارق التي سبقت الإشارة إليها. وفي هذا السياق ينتبه كثيرون حين يقارنون بين الوضعين في الوقت الراهن إلى حقيقة وجود حزب الله في بلد مستقل يملك فيه قدرة وافرة على النشاط الذي تعجز إسرائيل عن منعه، ويتمتع بفرص الاتصال بالخارج وتلقي المعونات، بينما يُحرم الفلسطينيون في الأرض المحتلة هذا كله.

رابع البنود يستحضر الفارق الذي نشأ منذ تعزّز الاتجاه الفلسطيني إلى التسوية السياسية وولجت أغلبية الفلسطينيين عطفة أوسلو. فبموازاة مجهودات التسوية، بهتت صلة أغلبية القوى الفلسطينية بالأنظمة والقوى الشعبية العربية المتشددة في وجه إسرائيل والولايات المتحدة، كما بهتت الصلة بالأنظمة والقوى الأجنبية التي تناهض العدوانية الأميركية. وعلى النقيض، اتسعت الصلة بالأنظمة المستخذية أو المتهاونة إزاء إسرائيل وحماتها. وهذه هي الأنظمة التي ثابرت على دعوة الفلسطينيين إلى نبذ المقاومة وحجبت عنهم أي معونات قد تساعدهم على الارتقاء بها وحثتهم على التخاذل. أمّا قوى الأقلية الفلسطينية المتشبثة بالرفض، فقد انشغلت بمناوأة قوى التسوية أكثر من انشغالها بمقاومة الاحتلال. وقد حالت الملاحقة الإسرائيلية المثابرة بين هذه القوى وبين توسيع قدراتها القتالية وتطوير أساليبها ونفض اليد من الأساليب التي لا تجلب سوى سوء السمعة. في الوقت ذاته، ثابر حزب الله على تعزيز صلاته بمن تنسجم مواقفهم مع موقفه. فحظي الحزب بدعم متواتر ومتنام لا من داخل لبنان فقط، بل من خارجه أيضاً. وبهذا، كما بغيره، ارتقى الحزب بقدراته القتالية، وثبت وأفلح في المعارك المتتالية التي خاضها، فانتفع ونفع الذين يؤيدونه. لقد أوهن الانقسام بين الرفض والقبول قوى الفلسطينيين، وضيّقت سياسة استرضاء الأعداء فرص تطوير وسائل المقاومة. أمّا تشدد حزب الله فقد متّن صفه وعزز قدرته على الاستمرار في المقاومة وتطويرها.

في الحرب الأخيرة

حين ظفر مقاتلو حزب الله بالأسيرين الإسرائيليين، كان أكثر من أسبوعين قد مضيا منذ ظفر مقاتلون فلسطينيون من قطاع غزة بأسير إسرائيلي. وقد هلل الجمهور الفلسطيني، المحتبس في الأطواق المحكمة، لعملية المقاومة اللبنانية الباهرة، وتوقع أن تشتد حاجة إسرائيل إلى إجراء عملية تبادل أسرى، فيظفر بالحرية عدد كبير من الأسرى الفلسطينيين المحتجزين في سجون دولة الاحتلال. ولأن إسرائيل رضخت أكثر من مرة لحاجتها إلى إجراء تبادل للأسرى مع أطراف

فلسطينيين في لبنان أو لبنانية، فما من أحد توقع أن يكون سلوكها مختلفاً هذه المرة. وهنا، كان للثقة بقدرات حزب الله دور كبير في حمل سكان الأرض المحتلة على الأمل بأنهم سيستقبلون دفعة جديدة من أسراهم المحررين. وللوهلة الأولى، لم يتوقع الناس أن تشن إسرائيل حرباً طاحنة على لبنان. أمّا ما توقعه معظم الناس فهو أن تشدد إسرائيل غاراتها المتواترة على الأرض المحتلة، وخصوصاً قطاع غزة؛ أي أن تشدد إسرائيل الضغط على آسري جنديها المحتجز في القطاع وتظهر عزمها على الحيلولة دون الربط بين قضيته وقضية جنديها في لبنان. فلمّا جرت الأمور خلافاً للمتوقع وخلافاً للمنطق، نشأ سبب إضافي لشد الانتباه إلى الحرب. ثم راح الانتباه يتعاظم مع توالي وقائع الحرب ومفاجآتها.

فريق الرئاسة وفريق الحكومة

مؤسسة الرئاسة الفلسطينية، العالقة مع "حماس" وحكومتها في مشكلة ازدواجية السلطة، انتبهت إلى أمرين: شدة العزم الإسرائيلي على جعل الحرب على لبنان حرباً طاحنة، وشدة الدفع الأميركي لإسرائيل في اتجاه القضاء على المقاومة اللبنانية مهما يكن الثمن. وحين انضمت أنظمة عربية تضيق بوجود المقاومة اللبنانية إلى لائمي حزب الله، محملة إياه المسؤولية عن الحرب والدمار، كان هذا مؤشراً إضافياً أكد أن الأمر هو أمر حملة شاملة تريدها الولايات المتحدة وسيلة للتخلص من القوة الصلبة التي تعرقل استكمال استعداداتها لتطويع لبنان والتثنية بسورية ثم بإيران. ومع هذه المؤشرات، توقعت الرئاسة أن ينتج من تحقيق هدف الحرب تشديد القبضتين الأميركية والإسرائيلية على المنطقة بأسرها. وبهاجس الرغبة في التقليل من الكوارث، الهاجس الذي يشكل واحداً من أعمدة سياسة الرئاسة الفلسطينية، وبأمل أن تتجنب توفير ذريعة لإسرائيل كي تشدد فتكها بالفلسطينيين، اكتفت مؤسسة الرئاسة بتسجيل تنديد تقليدي بالحرب على لبنان، وتأكيد أن شعب فلسطين يقف إلى جانب الشعب اللبناني. ولم تذكر بيانات الرئاسة حزب الله أو المقاومة اللبنانية بقليل أو بكثير. وفي بداية الحرب، سادت القناعة داخل اللفيف الرئاسي بأن هذه الحرب ستفضي إلى إخراج حزب الله من معادلة القوة القتالية في الصراع مع إسرائيل، وستنشئ ميزان قوى داخلياً جديداً في لبنان يأذن للولايات المتحدة في تطويعه بالكامل لمشيئتها. ولأن المؤسسة الرئاسية تنشد الدعم الأميركي لها، سواء في مواجهة التعنت الإسرائيلي أو في الخصومة مع "حماس" وحكومتها، فقد وجدت نفسها غير قادرة على تسجيل ما يزيد على هذا التنديد الذي لا تستفز صيغته الولايات المتحدة. إذاً، فإن مؤسسة الرئاسة تجنبت أن يصدر عنها ما يشي بالاصطفاف مع حزب الله أو مع من يدعمونه في الداخل والخارج. وهكذا، بدا الموقف باهتاً، سواء تعلق الأمر بالتنديد بالعدوان الإسرائيلي أو بالتعبير عن التعاطف مع ضحاياه. والمثير للانتباه أن هذا الموقف، الذي بُني على أساس أن العدوان سيحقق أهدافه في غضون أسبوعين أو ثلاثة، لم يتبدل حتى بعد أن بدا واضحاً أن حزب الله ليس بندقة محشورة بين شدقي كسارة بندق، وإنما صوّانة عصية على الكسر، وشوكة مغروزة في حلق إسرائيل، لا تستطيع حتى الولايات المتحدة ذاتها أن تنزعها من هذا الحلق.

هذا الوصف الوجيز لردة فعل مؤسسة الرئاسة قد يحجب تفصيلات لا بد من الانتباه لها. فالملتفون حول الرئاسة في موقفها السياسي، وفي تجاذبها مع "حماس" وحكومتها، وفي رهاناتها الدولية، كثيرون، "فتح" بكتلها وشللها العديدة، المتوافق منها بعضه مع بعض والمتنافس أو المتخاصم، وفصائل أُخرى صغيرة، ونخب عديدة، وجمهور ليس قليل الحجم. ولئن عكست ردة فعل الرئاسة موقفها الرسمي، فقد تمايزت داخل الفريق الملتف حولها عدة مواقف. هذا التمايز عكس تحرر بعضهم من دواعي التحفظ التي كبلت ردة فعل الرئاسة، كما

عكس تأثير المنافسات والخصومات التي تدفع بعض أطراف هذا الفريق إلى المزايدة على بعضها الآخر. فكتائب شهداء الأقصى على سبيل المثال، وهي التي تنسب ذاتها إلى "فتح" من دون أن تكون موحدة فيما بينها، أو تحت راية "فتح" ذاتها، هذه الكتائب المتعددة المراكز أصدرت بيانات تميزت بنبرة أشد في إدانة العدوان الإسرائيلي وفي تأييد المقاومة اللبنانية.

لقد كان الحرص على عدم استفزاز إسرائيل وعلى استرضاء الولايات المتحدة، والتحسب إزاء تداعيات انهزام حزب الله، هما اللذان صاغا ردة فعل الرئاسة المتحفظة، وذلك في المقام الأول. لكن هذا لا يجيز أن نهمل تأثير العوامل التي أشير إليها في أول هذا المقال، وخصوصاً حاجة بعضهم إلى الانتقاص من مكانة حزب الله وأهمية منجزاته. كما أن هذا لا يجيز أن نهمل تداعيات البرود الماثل في علاقة مؤسسة الرئاسة ولفيفها الفتحاوي وغير الفتحاوي بالدول التي تظهر تشدداً في وجه إسرائيل والولايات المتحدة، والتي تدعم حزب الله وتؤيد "حماس" وحكومتها.

الحكومة الفلسطينية، وهي حكومة "حماس" وحدها، تشكل الفريق الثاني في السلطة، ويُفترض أنها تنتمي عقيدياً إلى الصف الإسلامي الجهادي الذي ينتمي حزب الله إليه. وهذا يعني أن تمحض "حماس" وحكومتها المقاومة اللبنانية تأييداً غير متحفظ. وعلى الرغم من هذا، فإن ردة الفعل على هذا الجانب لم تختلف اختلافاً جوهرياً عن ردة فعل فريق الرئاسة. ولأن المكتوب يُقرأ من عنوانه، فإن التحفظ "الحماسي" في الجهر بالتأييد ظهر منذ البداية. فحين عرض حزب الله الربط بين قضية الأسرى الذين يحتجزهم الجانبان، أظهرت ردة فعل "حماس" حرج الحركة الإسلامية الفلسطينية إزاء هذا العرض. وفي حين قال متحدث "حماسي" إن حركته ستقبل الربط، قال متحدث آخر إنها ستدرسه. وفي النهاية، لم يعلن أي "حماسي" ما انتهت إليه الدراسة ولم يتم الربط. وفي أيام الحرب الثلاثة والثلاثين، تشددت "حماس"، خلافاً للمتوقع، في التزامها وقف إطلاق النار من جانب واحد، وتذرعت بالصبر حتى إزاء توالي الاستفزازات الإسرائيلية الموجهة ضد الفلسطينيين أنفسهم في المناطق الفلسطينية وليس ضد لبنان وحده. أمّا التأييد بالكلام وما يشبه الكلام، فإن بدا أوضح قليلاً من كلام فريق الرئاسة، إلاّ إنه جاء هو الآخر مقتضباً.

في تفسير هذا التحفظ يجدر أن نبادر إلى تصحيح انطباع مغلوط فيه جرى ترويجه في الأرض المحتلة. فقد قيل إن قادة "حماس" اختلفوا فيما بينهم، فكان المقيمون منهم في الخارج أشد حماسة للاصطفاف مع حزب الله. والصحيح، وفق معلومات كاتب هذه السطور، أن موقف قادة الداخل وقادة الخارج كان في هذا المجال واحداً. وإذا كان قادة الداخل هم الذين تولوا التعبير عن الموقف بينما قادة الخارج صامتون، فقد جرى هذا بالاتفاق بين الجميع. وقادة الخارج، وبينهم أعلى قادة "حماس" المعلنين مرتبةً، هم الذين أوكلوا المهمة إلى إخوانهم في الداخل. أنيط الأمر بقادة الداخل لأسباب عديدة لا مجال هنا لتقصّيها جميعها. ولعل أهم هذه الأسباب انبثق من إدراك الجميع الحاجة إلى تجنيب الأرض المحتلة التعرض لمزيد من البطش الإسرائيلي. وفي الأسباب ترد أيضاً حاجة حكومة "حماس" إلى تخفيف الذرائع التي عرّضتها للعزلة، وتليين الضغوط المنصبة عليها من كل مكان، وتجنب استفزاز الولايات المتحدة التي تنظم حملة الضغوط.

وهكذا، لئن أوجب العامل العقيدي على "حماس" أن تُعين المقاومة اللبنانية بأكثر من التأييد اللفظي المقتضب، فإن الحسابات السياسية هي التي تغلبت ففرضت الاقتضاب. وهكذا، أيضاً، يمكن أن نلاحظ بسهولة أن الدوافع التي قيدت ردة فعل الرئاسة و"فتح" ولفيفهما هي التي قيدت أيضاً ردة فعل "حماس" والحكومة ولفيفهما: التحسب من الانتقام الإسرائيلي والسخط الأميركي، أي سد الذرائع. وفي هذا السياق، يمكن إيراد السبب المتصل بسعي "حماس" الحثيث لـ "فك" عزلة حكومتها. فهذا

السعي يوجب إظهار الميل إلى الاعتدال لا إلى التشدد. ولقد قبلت "حماس" أن تشكل "وثيقةُ الأسرى" الفلسطينيين أساساً لبرنامج حكومة وحدة وطنية ترئسها هي. وبدت "حماس" حريصة على بث إشارات اعتدال أُخرى. وتشبثت "حماس" بتجنب أمرين معاً: خرق وقف إطلاق النار المعلن من جانبها، وحك أنف الولايات المتحدة.

أمّا الجبهة الشعبية، وتعتبر الثانية في الأهمية بين قوى منظمة التحرير الفلسطينية، والثالثة حين تدخل قوة "حماس" في الحسبان، فقد أذاعت بيانات تأييد غير متحفظة. لكن قدرات الجبهة، التي تقلّ كثيراً عن قدرات كل من "فتح" و"حماس"، لم تمكنها من تقديم المزيد. وهذا هو أيضاً ما فعلته فصائل أُخرى وما لم تفعله.

الجمهور والنخب المستقلة

جمهور الذين يوصفون عادة بأنهم الناس العاديون محض حزب الله ومقاومته تأييداً لا تحفظ فيه. استوى في هذا المؤيدون لفصيل أو لغيره، لسياسة الرئاسة أو لسياسة الحكومة، والمستقلون. وقد والى الجمهور التعبير بشتى الوسائل المتاحة عن إعجابه بأداء المقاومة اللبنانية في المواجهة مع إسرائيل الغازية. وإذا بدت حجوم التظاهرات الشعبية أقل من المتوقع قياساً بموقف الجمهور، فليس لأن الناس تعمدوا الاقتصاد في إظهار التأييد والإعجاب كما فعلت سلطتهم، بل لأن الفصائل التي تتقاسم السلطة لم تشأ، على ما يبدو، أن تتجاوز التظاهرات حداً بعينه، فلم تنشط لتكبير حجومها. لقد شاءت هذه الفصائل ألاّ تخرج حركة الجمهور عن حد السيطرة.

وأياً ما كان عليه الأمر، فإن مظاهر الاغتباط بمنجزات المقاومة اللبنانية في هذه الحرب اشتملت على أمثلة مثيرة. لم يكن من المتوقع أن يُنجِد السجناءُ الطلقاءَ، وسكانُ الأرض الفلسطينية المحتلة سجناء كلهم بمعنى من المعاني. إلاّ إن ما أظهره الجمهور بوسائل التعبير المتاحة كان كافياً للدلالة على الإحساس العميق بالارتباط بين ميادين المجابهة مع إسرائيل. وفي غزة التي تكابد العوز وتشتد مكابدتها بمضي الأيام، وُجِد ناس يوزعون الحلويات على المارة في الشوارع كلما حملت الأنباء نبأ ضربة موجعة أوقعها المقاومون اللبنانيون بإسرائيل. وفي الضفة، تنادى عدد من رجال الأعمال الذين يفتك الكساد بأعمالهم إلى تشكيل هيئة لجمع التبرعات العينية وإرسالها إلى اللبنانيين.

مع الأمثلة الكثيرة التي ذكرنا اثنين منها فقط، لم تسلم اندفاعة الإعجاب والتأييد من تأثير الهواجس التي تفعل فعلها في كل شأن فلسطيني. فمع الاغتباط بمنجزات المقاومين اللبنانيين وفشل الغزاة، حضرت الخشيةُ من أن يشتد بطش إسرائيل بالفلسطينيين انتقاماً لفشلها في لبنان. ومع استقطاب الحرب على لبنان أشد الانتباه، نبت القلق من أن يبهت الانتباه تجاه المآسي التي يكابدها المطوَّقون في الأرض الفلسطينية المحتلة. وإلى هذا وذاك، حضر التحسر إزاء العجز المتواتر عن بلوغ الشأو من الإعداد والتنظيم والأداء الذي بلغه حزب الله.

وفي ثنايا ردات الفعل الرسمية والشعبية، ما رُسم منها وفق حسابات وتحسبات مغلوط فيها أو صائبة وما انطلق بعفوية، بقيت مساحة لآراء الذين يتبصّرون في الدلالات العميقة للوقائع من دون أن تشوش الحسابات والمخاوف قدرة بصيرتهم. في هذه المساحة، برزت آراء كثيرة من الممكن إجمالها في حزمتين: آراء الذين أسلمهم اطراد تردي الأحوال إلى الاقتناع بأن فرصة النهوض ليست ماثلة في الوقت الراهن، وآراء الذين يركزون على الإشارات التي تدل على أن استمرار التردي ليس قدراً يتعذر رده.

ناس الفريق الأول رأوا أن إسرائيل تستند إلى الولايات المتحدة التي تملك قوة طاغية التأثير في مصائر الدول والشعوب جميعها. وعند هؤلاء، إذا صح أن إسرائيل والولايات المتحدة عاجزتان عن تحقيق أهدافهما في لبنان في هذه الجولة، فهذا لا

يعني أنهما ستتراجعان أو ستكفان عن السعي لتحقيقها في جولات مقبلة أو بوسائل أُخرى. وصمود المقاومة اللبنانية في هذه الجولة، الصمود الذي لم يتوقعه المهاجمون، سيحفز هؤلاء على تصويب أخطائهم وشحذ أدواتهم. ولا قبل للبنان في الاستمرار في مواجهة الساعين لتطويعه للمشيئة الأميركية. أمّا ناس الفريق الثاني فرأوا أن فشل جيش إسرائيل في تحطيم المقاومة اللبنانية هو فشل أميركي بمقدار ما هو إسرائيلي. وهو فشل يعكس تبدلات جوهرية طرأت على مقومات الموقف الأميركي ـ الإسرائيلي. فمشروع الهيمنة الأميركية على دول العالم كله يتعثر في غير مكان. وقد تعثر هذا المشروع الذي حشدت له أعتى القوى العسكرية حتى في لبنان، البلد الصغير، وأمام مقاوميه ووسائلهم المحدودة. وكفاءة إسرائيل في تحقيق أهدافها، أو في خدمة المشروع الأميركي، تدنت بدرجة ملحوظة. كما أن كفاءة إسرائيل الاقتصادية تتدنى على نحو مطرد منذ أعوام. وبنيتها الاجتماعية، وبالتالي السياسية، تتكشف عن عيوب وأوجه خلل، كثير منها غير قابل للمعالجة في ظل استمرار السياسة العدوانية التي تنتهجها إسرائيل، والتكاليف المباشرة وغير المباشرة لهذه السياسة. أمّا كفاءة الجيش الإسرائيلي فقد لحق بها عطب شديد جراء انهماكه على مدى عقود متصلة في مهمات بوليسية ضد ناس عزّل أو شبه عزّل. ومع وجود الأسباب الأُخرى، فإن هذا العطب غير قابل للمعالجة في زمن قصير. والأمر، إذاً، هو أمر انحسار في القدرة على تحقيق الأهداف العدوانية، وليس أمر أخطاء من هذا النوع أو ذاك ارتكبت خلال هذه الجولة.

وكاتب هذه السطور واحد من فلسطينيين كثيرين يرون أن فشل إسرائيل في تحقيق أهدافها المعلنة في لبنان سيستمر، وأن الولايات المتحدة التي حثت إسرائيل على شن الحرب وإطالة أمدها لن تفلح في تحقيق أهدافها المعلنة أو المضمرة من وراء هذه الحرب. وحين يقول الأمين العام لحزب الله، السيد حسن نصر الله، إن المقاومة اللبنانية خرجت من هذه الجولة أقوى مما كانت عليه، فإن هذا القول يُجمل حصيلة ثلاث ظواهر: اهتزاز قدرة الولايات المتحدة على أن تفبرك بالقوة العسكرية أوضاعاً تناسبها هي في بلد أو غيره؛ تدني قدرة الردع الإسرائيلية وهبوط مستوى جيش إسرائيل؛ عودة الاعتبار إلى ما يمكن أن ينجزه مقاومون شعبيون أكفاء ضد جيوش تعتدي على أوطانهم. لقد أفقدت هذه الجولة قيادات إسرائيل السياسية والعسكرية كثيراً من صدقيتها، وزعزعت ثقة الجمهور الإسرائيلي ذاته بكفاءتها. أمّا المقاتلون اللبنانيون، فقد تعززت صدقيتهم لدى جمهورهم كما لدى أعدائهم. وليس من المستبعد أن يصدق الإسرائيليون السيد حسن نصر الله إن قال ذات يوم أنه يتحدث من تل أبيب وليس من القدس فقط. أمّا الفلسطينيون فمن المؤكد أنهم سيصدقونه. ■